[127] اهل المدينة: غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بنى أمية. وتابعته على ذلك دولة بنى مروان. لكن المدينة بلدة طيبة وشعب كريم. وثب أهلها بالأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها، على موثق من أهلها، ألا يدلوا جند يزيد على عوراتها. وجلا الأمويون إلى الشام إلا زوج مروان بن الحكم، عائشة بنت عثمان بن عفان، توجهت إلى الطائف في حماية " على زين العابدين ". والمدينة واحة في قفر، والرزق نزر في الصحارى الساخنة، إلا ما يرد إلى الناس من تجارة أو عطاء، متقطع كسحائب الصحراء، يجرى، ويجف، حسب الشهوات، في دمشق. وأهل البيت تجيئهم حقوقهم في بيت المال أو لا تجئ، لكنهم ينفقون المال خفية وعلانية - ولو كان بهم خصاصة - فعلى زين العابدين مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لا يعرف إلا بعد أن يموت، فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه. وكذلك أبناؤه، يتزعمهم الباقر. وهو القائل: إن استطعت ألا تقابل أحدا إلا ولك الفضل عليه فافعل. أما ابن عمهم عبد ا بن جعفر بن أبى طالب فكان وثيق العرى بالخلفاء. سأله يزيد بن معاوية يوما كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم. قال يزيد: قد أضعفناها لك. قال ابن جعفر فداك أبى وأمى. وما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية. ولما خرج عبد ا من المجلس، قال: جلساء يزيد: تعطى رجلا واحدا أربعة آلاف ألف درهم ! قال: ويحكم إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين. فما يده فيها إلا عارية. والحق أن الفقراء كان لهم في أمواله حق معلوم، فكانوا يستدينون في انتظار ورود عطاء عبد ا بن جعفر من العاصمة.
